المحاضرة العاشرة: تطبيقات الحجاج في الحديث النبوي الشريف

إن الخطاب النبوي خطاب يمتاز بحوارية ذاتية، يحمل مقصدا تبليغيا موضوعيا[1]، وقد اعتمد الحديث النبوي على مجموعة من الآليات اللغوية وغير اللغوية للوصول بالمتلقي إلى درجة الإذعان والاقتناع. ويعد الحوار أحد أبرز الأسلوبيات الحجاجية التي تميز بها الحديث النبوي وذلك أنه خطاب يدعو إلى الله سبحانه وتعالى ويسعى إلى أقناع الناس بالتي هي أحسن، فحاورهم فدحض حجج الخصوم الواهية، وأقام عماد الدين من خلال الحوار.

قال رسول الله ﷺ: "إن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه! فقال: أدنه، فدنا منه قريبا، قال فجلس قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم".[2]

إن الناظر في هذا الخطاب يرى أسلوبية الحوار التي أحاطت بالخطاب ككل، بل ووجهته نحو وجهة حجاجية، فكان السؤال الحدث البارز في حوارية طرفي الخطاب.

يمثل السؤال والجواب الوحدة الأساسية للغة، وبالتالي فإن استخدام اللغة يتحدد دائمًا بناءً على ذلك. فالكلام يعبر عن إثارة سؤال أو التصدي له، سواء كان ذلك

---

[1] سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1998، ص18.

[2] أحمد بن حنبل، مسد الإمام، ج05، ص256.

من خلال تقديم حل أو من خلال صياغته[3]، فالسؤال مناط الحجاج، إذ من خلال يثار الإشكال الذي يحدث هو بدوره الوظيفة الحجاجية.

ومن الآليات الحجاجية في الحديث النبوي:

1-الروابط الحجاجية:

أ-الفاء السببية:

قال رسول الله ﷺ: " من قتل دون ماله، فهو شهيد، ومن قتل دون دمه، فهو شهيد، ومن قتل دون دينه، فهو شهيد، ومن قتل دون أهله، فهو شهيد". رواه أبو داود

إن الحديث النبوي تحدث عن حالات جمعت كلها موت الرجل، ولكنها اختلفت في وضعيات متباينة، ومع هذا الاختلاف اتفقت جميعها في النتيجة، وهو جزاء هذا الموت الذي اعتبره الرسول موت الشهادة.

إن الفاء السببية جعلت نيل الشهادة وهي درجة عالية من نصيب من قتل في سبيل الأمور التي ذكرها، الموت دفاعا عن ماله، ودمه، ودينه وعرضه. وهي أمور دعا الإسلام إلى حفظها والذود عنها، فكان جزاء من مات في سبيلها من الشهداء.

ب-الرابط لكن: وهو رابط تعارضي يقتضي مخالفة ما بعدها لما قبله، أي المفارقة[4]، ومثالها في الحديث النبوي الشريف:

---

[3] ميشال مايير، اللغة والمنطق والحجاج، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ص16.

[4] محمد بن علان الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، دار الفكر، بيروت، 1980، مج01، ج01، ص51.

قال رسول الله ﷺ: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا"[5]، إن الرابط الحجاجي لكن ربط بين حجتين كل حجة تفضي إلى نتيجة تخالف الأخرى، فالحجة الأولى: لا هجرة بعد الفتح، تخدم نتيجة من قبيل: الهجرة المطلقة منعت، والحجة الثانية، جهاد ونية، تخدم نتيجة من قبيل: هجرة الجهاد باقية، ويمكن أن نمثل لها على النحو التالي:

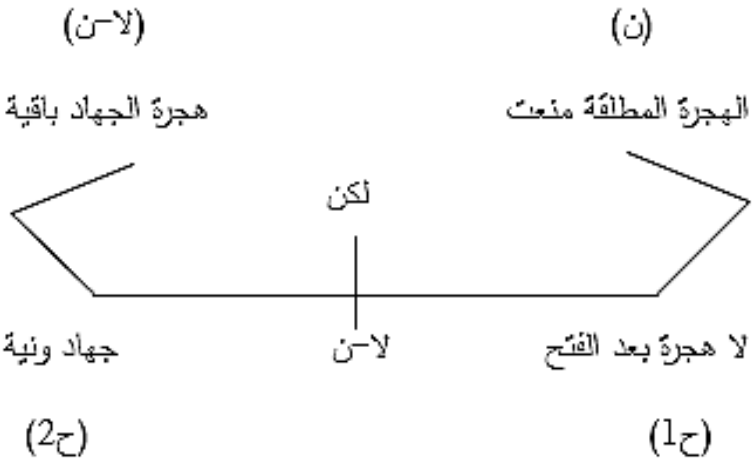

2-العوامل الحجاجية:

تلعب العوامل الحجاجية دورًا في تقييد الإمكانيات المتعددة الموجودة في بنية الملفوظ. فهي لا تقتصر على الربط بين حجتين أو أكثر، بل تركز أيضًا على حصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية المتضمنة في بنية الخطاب الحجاجي.[6]

---

[5] المرجع نفسه، ص50، 51.

[6] أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص27.

ومن أهم العوامل الحجاجية أسلوب القصر ومن ذلك العوامل: ما...إلا، لا...إلا، إنما، القصر يوازن بين طرفي النسبة في الكلام، سواء كانت إسنادية أو غيرها، حيث يخصص أحد الطرفين بالآخر دون تجاوزه، إما بشكل مطلق أو عبر إضافات معينة.[7] يستهدف أسلوب القصر ثلاثة أنواع من المخاطبين:

- مخاطب يحمل رأيًا مخالفًا.

- مخاطب يشكك في الرأي المعروض عليه.

- مخاطب يعتقد بوجود شراكة بين اثنين أو أكثر في الحكم.[8]

أ-العامل الحجاجي إنما:

يعتبر العامل "إنما" أداة توجيه وتقييد للإمكانات المتاحة في الخطاب. حيث يقوم هذا العامل الحجاجي بإبراز معنى ثابتا من خلال تقييده وتعزيزه، مما يمنح الخطاب نوعًا من التنظيم والقوة في الحجة. [9] وبالتالي، يسهم هذا الرابط في تأكيد المعنى وتقييده، مما يوجه المتلقي نحو نتيجة محددة.

ومن أمثلته:

---

[7] أبو البقاء الكوفي، الكليات، تح عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1998، ص716، 717.

[8] فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، دار الفرقان، الأردن، ط4، 1997، ص364.

[9] مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية، ص113.

قال رسول الله ﷺ: "إنَّما مثَلُ الجليس الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ: كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ ريحًا طيِّبةً، ونَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَن يَحْرِقَ ثِيابَكَ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً"

أراد رسول الله ﷺ أن يبين مكانة كل من الرجل الصالح والرجل السيء، فضرب بذلك مثلا مستخدما أداة الحصر إنما، والتي تفيد كما قلنا حصر مجموعة من الإمكانات، فالمتلقي يحمل شكا أو رأيا مخالفا فجاء بها حتى يوجه ذهنه نحو وجهة واحدة وقصر جميع الإمكانات في إمكان واحد.

فكأنه نفى ما قبلها أي ما يعتقده المتلقي في أن جليس الصالح وجليس السوء سواء في ذلك، أو أنه يشك في التفاوت بينهما، وأثبت بالأداة ما بعدها، وبذلك نلاحظ أن المخاطِب يوجه ذهن المتلقين من خلال سلطة الخطاب.

ب-العامل الحجاجي ما...إلا:

يعتبر هذا الرابط الحجاجي من الصرافم التي تحقق العاملية الحجاجية، وهو نوع خاص لأنه يتكون من صرمين: الأول يدل على النفي، والثاني يدل على الاستثناء[10]، **ومن أمثلته:**

قال رسول الله ﷺ: "ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ"

[10] عز الدين ناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 60.

لقد استخدم المخاطب في هذا النص العامل الحجاجي "ما...إلا" بهدف تحقيق غرض حجاجي. إذ إن استخدام هذا العامل يساهم في نقل القول من المستوى الإبلاغي إلى المستوى الحجاجي، حيث تعمل العوامل على توجيه الخطاب نحو نتيجة معينة.[11] وهذا التوجيه هو ما يؤثر في ذهن المخاطَب فيحمله على الإذعان والاقتناع.

جاء العامل الحجاجي ليبين أن كل المواليد هم مسلمون مؤمنون بالله تعالى وهذا التقييد يرسم في ذهن المخاطَب النتيجة التي يرده المخاطِب الوصول إليها، فنرى أن العامل الحجاجي يعزز الحجة ويقويها، حيث يُعتبر أسلوب "ما...إلا" من أساليب القصر التي تقيّد الإمكانيات المطروحة وتضغط على محتواها الخبري، مما يجعل المخاطَب يوليها اهتمامه.[12] فالقصر يمتلك القدرة على توجيه المخاطَب نحو الاتجاه الذي يرغب فيه المخاطِب، كما يساهم في منح الملفوظ قوة حجاجية كبيرة من خلال توجيه الذهن نحو النتيجة المستهدفة.

---

[11] عز الدين ناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص61.

[12] مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية، ص108، 109